المحاضرة الخامسة:

البناء الاجتماعي للواقع عند بيرغر وتوماس لوكمان:

أولا- عن بيتر بيرغر وتوماس لوكمان: Thomas Le Mans ,Peter Berger:

ولد توماس لومان Thomas Le Mansعام 1927 في سلوفينيا وبيتر بيرغرPeter Bergerعام 1929 في فينا. برزا في الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية. أصبح كتاب البناء الاجتماعي للواقع، والمتبوع في النسخة الإنجليزية بعنوان فرعي هو دراسة في علم الاجتماع المعرفة، والمطبوعة في بداية سنة 1966كتابا مترجعا، مع ذلك لا تعود الترجمة الفرنسية الأولى لهذا الكتاب إلا الى سنة 1986، وأعيد تدقيقها سنة 2006.كان بيرغر ولكمان طالبان لأحد كتاب العلوم الاجتماعية التقليديين، الذي اكتشف هو أيضا في فرنسا خلال سنوات 1980-1990:إنه ألفريد شوتز Alfred Schutzالذي أطلق علم الاجتماع الظواهري.

وبعد شوتز وسع بيرغر ولوكمان في مقدمتهما علم الاجتماع المعرفة، الذي كان قبلها مقصورا على المعرفة النظرية، الى المعرفة العادية. إن الالهام الشوتزي هو الذي دعاهما الى النظر بصورة واقعية للظاهراتية من خلال الانطلاق من المعرفة في الحياة اليومية، ومن تفعيلها في حالات المواجهة، مما يتطلب تشكيل عالم يشمل البيئة الثقافية بجانبها المعنوي والمادي، فترتبط تصرفات الفرد بهذا المخزون المعرفي والثقافي للجماعة، ويجعل الأفراد بعد هذا يمثلون متطلبات الدور، لما يضمن من مستويات وحقوق وما يرتبط به من توقعات، ضمن هذا المنظور الذي يتضمن واقع الحياة اليومية مخططات تنميط، يتم من خلالها إدراك المخططات الأخرى ومعالجتها في لقاءات المواجهة.

حيث تشكل هذه التنميطات المتبادلة بين الفاعلين جزءا من مفاوضة متواصلة ضمن حالة المواجهة. من المحتمل أن يكون مثل هذه المفاوضة في الحياة اليومية منسقا بطريقة نمطية، كما في عملية السوق النمطي التي تتطور بين المشترين والبائعين. وكما لاحظ دانييلو مارتوشيللي Danilo Martocelli اذن انطلاقا من عمليات الوعي الذاتي وطرق حيازته الدلالات المشتركة، أنه يبسط هذا المنطق توالي الفصول الثلاث: "أسس المعرفة في الحياة اليومية"، و"المجتمع كواقع موضوعي"، و"المجتمع كواقع ذاتي" .

ثانيا-المجتمع كواقع موضوعي وذاتي:

لقد تطور التحليل الظاهراتي خلال العقود الأخير من القرن العشرين، ليأخذ أبعاد جديدة ومغايرة، ويقدم تصنيفات متطورة للمسلمات والقضايا الأساسية، التي تقوم عليها الظاهراتية كنظرية معاصرة؛ ضمن إسهامات" بيتر بيرغر ولوكمانفي المؤلف المشترك المسوم بـ"التشكيل الاجتماعي للواقع The social construction of Reality، الذي يستمد أهميته من تحليل فكرة التشكيل الاجتماعي للواقع،أو البناء الاجتماعي للواقع، ويجعل هذه الفكرة بمثابة إطار مرجعي لدراسة البناءات الاجتماعية، وفهم وتحليل الظواهر الاجتماعية ومجموعة الأفعال والأدوار، والسلوكيات التي توجد بين الأفراد وفي المجتمعات الحديثة .

حيث يعمل"بيرغر ولوكمان" على توضيح الصورة حول عملية التشكيل الاجتماعي، واعتبارها كعملية ديالكتيكية مستمرة بين الأفراد؛ لإيجادها عن طريق أفعالهم وتفاعلاتهم، وخلق واقع مشترك يتكون من خبرتهم عن الحقائق الموضوعية أو الواقع الموضوعي Objective reality، الذي يرتبط بالنظام الاجتماعي أو العالم النظامي الذي يعتبر نتاجا للإنسانية. إلى جانب المعاني الذاتية أو الواقع الذاتي Subjective Reality الذي ينعكس من خلال المعنى الداخلي الذي يدركه الأفراد.

وهذا ما أشار إليه بيرغر ضمن دراسته حول العرش المقدسThe sacred conopy، ومناقشته لأفكار متعددة ترتبط بالواقع سواء أكان ذاتيا أو موضوعيا، وكيفية تكوين أو ظهور هذا الواقع حسب أنماط معينة من المواقف والعمليات الاجتماعية، كما تعتبر أنماط الواقع مطلبا أساسيا لاستمرارية النظام ككل، وهذا بفضل قدرة الإنسان على إنتاج عالم يجربه بعدئذ على أنه شيء آخر ليس نتاج إنساني، ومؤكدا في لحظتها على أن العلاقة بين الإنسان المنتج والعالم الاجتماعي الذي ليس من إنتاجه علاقة جدلية، وسوف تبقى كذلك، بمعنى أن الإنسان وعالمه الاجتماعي يتفاعلان معا.

الأمر الذي يتطلب البحث في الطريقة التي يتشكل بها هذا الواقع، من أجل المزيد من الفهم الحقيقي والكافي للواقع ككيان مستقلا عن المجتمع، أو بعبارة أخرى، كيف تصبح المعاني الذاتية إدراكا موضوعيا للحقيقة؟. وهذا بالفعل ما حاول بيرغر ولوكمان تضمينه من خلال ادراج الواقع الذاتي والموضوعي في اطارهما النظري، مما جعله أكثر من كونه اطارا يمثل منظورا سوسيولوجيا قصير المدى بشكل خالص. وبدلا من ذلك يمكن النظر الى نظريتهما باعتبارها محاولة لتجسير المستوى السوسيولوجي قصير المدى والمستوى بعيد المدى، وهي المحاولة التي قام بها قلة من المنظرين الاجتماعيين. إن المفاهيم الأساسية في نظرية بيرغر

ولوكمان، والتي وصفها بأنها تمثل مراحل أساسية في تطور الأحداث ضمن عملية ديالكتيكية هي: التشييء Exlernchuzation، والموضعة Objectivation والاستدماج Internalization.

ثالثا–المفاهيم الأساسية في نظرية بيرغر ولوكمان:

- **التشييء Exlernchuzation:**

يصف بيرغر ولوكما ن اللحظة الأولى في العملية الجدلية المستمرة للتشكيل الاجتماعي للواقع"التشييء"، حيث يخلق الافراد عوالمهم الاجتماعية عن طريق نشاطهم الإنساني، إنما ينظران إلى النظام الاجتماعي على أنه انتاج انساني مستمر. ان النظام الاجتماعي يمثل نتاج النشاط الإنساني الماضي، ويوجد فقط طالما استمر النشاط الإنساني في إنتاجه.

وهكذا فإن للتشيئ بعدان؛ من جهة يعنى أن البشر قادرين على إبداع واقع اجتماعي جديد، مثل تشكيل صداقة جديدة أو البدء بعمل جديد. ومن جهة أخرى، يعني أن البشر قادرين على إعادة ابتداع المؤسسات الاجتماعية عن طريق تشييئهم لها، مثل صيانة وتجديد الصداقات القديمة أو دفع ضريبة الدخل.

ومن ثم، فإن مرحلة "التشيئ" تمثل مرحلة إنتاج في العملية الديالكتيكية، وفي طور "التشيئ" من عملية تشكيل الواقع يرى بيرغر ولوكمان الافراد باعتبارهم كائنات خلاقة ومبدعة، بإمكانهم السيطرة على بيئتهم. إن هذا المفهوم مماثل للذات الفاعلة كأحد وجوه الذات الاجتماعية، وهي فكرة تمت استعارتها من جورج هربرت ميد George Herbert Meade وباختصار، فإن "التشيئ" يعني أن الافراد يخلقون المجتمع ويبتدعونه.

- **الموضعة Objectivation:**

تمثل الموضعة عملية يدرك الأفراد بواسطتها الحياة اليومية باعتبارها منظمة، وواقعا مرتبا مسبقا يفرض نفسه ولكن مستقل عن البشر. ويوضح بيرغر ولوكمان أنه بالنسبة للفرد يظهر واقع الحياة اليومية مموضعا بشكل مسبق، أي تتشكل بواسطة نظام من الموضوعات قبل ظهورها على المسرح.

وتمثل اللغة الوسيلة التي تصنف بواسطتها الموضوعات على نحو ما، ويوضح بيرغر ولوكمان أن الموضوعات Objectivations العامة للحياة اليومية تصان بشكل أساسي بواسطة التعبيرات اللغوية. إن الحياة اليومية، فوق كل ذلك، تمثل حياة مع اللغة وبواسطتها، اللغة التي أشارك فيها زملائي. وهكذا، فإن فهم اللغة أساسي بالنسبة لأي عملية في واقع الحياة اليومية. لإن دور اللغة في صيانة الموضوعات العامة يوحي

أن التغيرات في اللغة سوف تقام، خذ بعين الاعتبار التحديات التي تواجه استخدام لغة شمولية والتي تأخذ مكانها حاليا في بعض الأماكن .

وباختصار، تعني الموضعة بأن المجتمع مكون من عالم من المواضيع المنفصلة عن الذات، أي يمثل واقعا موضوعيا له نتائج بالنسبة للفرد، لأنه يعود بالتأثير على مبدعه Acts back on وصانعه، وهذا ما يأخذنا للمفهوم التالي.

- **الاستدماج Internalization :**

المرحلة الثالثة في العملية الديالكتيكية هي الاستدماج، وتمثل نوعا من التنشئة الاجتماعية التي يتم بواسطتها شرعية النظام المؤسسي. فإن التنشئة الناجحة تعني أن هناك درجة علية من التساوق بين الواقع الموضوعي والذاتي وبين الهوية الذاتية والموضوعية. إن عملية الاستدماج بالنسبة لبيرغر توازي عملية التنشئة الاجتماعية بالنسبة لبرسونز، والتي يقوم الافراد فيها بالاستدماج، أي يجعلوا خاصتهم الواقع الاجتماعي المموضع، مع نتيجة أن كل واحد تقريبا يمثل ما كان ينبغي أن يكون عليه. وليس هناك مشكلة في الهوية بالنسبة لكل واحد يعرف كل شخص من هو والذي يمثل ذاته.

ويتم كل ذلك كما قلنا؛ من خلال التنشئة الاجتماعية التي يعرفها بيرغر كما يعرفها بارسونز، أي استدماج المعايير والقيم الاجتماعية. ومع ذلك فإن بيرغر يميز بين التنشئة الأولية والتنشئة الثانوية. حيث تشير التنشئة الأولية الى ما يخضع له الافراد في المرحلة الطفولية عندما يواجهون الآخرين المهمين، لا الذين يتماثلون معهم وجدانيا وعاطفيا. إن الطفل يتقمص دور الآخر الهام واتجاهاته، أي يستدمجها ويجعلها خاصة. أما بالنسبة للتنشئة الثانوية فإنها تشير الى أي عملية لاحقة تدخل الفرد المنشأ مسبقا الى قطاعات جديدة من العالم الموضوعي لمجتمعه. بشكل أساسي، إن التنشئة الاجتماعية الثانوية تمثل طورا لاحقا في عملية اكتساب المعرفة، وتهتم بأدوار أكثر تهديدا ودقة. إنها تأخذ مكانا تحت رعاية الوكالات المتخصصة، مثل المؤسسات التعليمية الحديثة.

وأخيرا توضح نظرية التشكيل الاجتماعي للواقع، أنه يعني انخراط الأفراد في الاستدماج، إذ يتكيفون مع توقعات المؤسسات الاجتماعية الموجودة، ويعيدون ابتداع وضع المؤسسة الاجتماعية في مرحلة التشييء، وما إن تتشيأ فإنها تصبح مموضعة، وما أن تتموضع فإنها تعود بالتأثير على الفرد باعتباره كيانا مستدمجا، حيث

يوضح بيرغر ولوكمان، بأن المجتمع نتاج إنساني"التشييء"، والمجتمع واقع موضوعي (الموضعة)، الإنسان نتاج اجتماعي (الإستدماج).

إن هذه المراحل أو العمليات أو المفاهيم الغنية معرفيا، تجمع بين مزايا الدراسات السوسيولوجية الصغرى والكبرى، لاسيما النظرية الوظيفية، الأمر الذي يظهر في محاولة تركيز كل منها على القيم والأفكار والمعرفة والمعايير، باعتبارها العناصر الأساسية التي تشكل طبيعة النظام الاجتماعي، كما أنها تسهم في عملية التنشئة المستمرة للأعضاء أو الأفراد الحاليين الجدد، ولكن دون استثمارها في فهم وتفسير علاقات القوة وبناءاتها، وما يمكن أن تموضعه هذه القوة وتجعله رائجا للإستدماج، وإذا ما تم التركيز على مؤسسات القوة واحتواء دراسة الظواهر الاجتماعية المعقدة، التي تفاقمت خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين، فان الفجوة تصبح أكثر وضوحا ، حيث هناك عمليات إجبار وانتقاء ومعايير مشوهة يجرى إستدماجها .